

ألمانيا والإسلام

في كتابه "ألمانيا والإسلام في القرنين التاسع عشر والعشرين"، بيروت 2007، يتناول الدكتور سنو علاقة ألمانيا بالسلطنة العثمانية ثم بالدول العربية في القرنين التاسع عشر والعشرين. والكتاب يقسم الى اربعة اقسام ونحن سنقف عند القسمين الثالث والرابع لأنهما يهماننا مباشرة. وهو كتاب شامل في حوالى 600 صفحة غني بالمراجع العربية والاجنبية وخاصة الالمانية. والدكتور سنو درس في ألمانيا في جامعة برلين الحرة على يد الاستاذ المستشرق المعروف فريتس شتايت (1923 – 2006) الذي يفرده له فصلا في خاتمة الكتاب يوفيه حقه لأنه كان نصيراً للقضايا العربية والحق العربي.

في تقديمه لكتابه يوجز تاريخ قيام مملكة بروسيا واهتمامها بـ"المسألة الشرقية". باعتلاء الامبراطور الالماني وليم الثاني العرش سنة 1889 ترسخت سياسة "الاندفاع نحو الشرق"، اي نحو الدولة العثمانية (الرجل المريض) التي كانت دول اوربا الكبرى، وخاصة بريطانيا وفرنسا وروسيا تتصارع على وراثتها قبل ان تلتقط انفاسها. وكانت اوربا بعد الحروب الصليبية او ما دعاه العرب "حروب الفرنجة" – بدأت بالتطلع نحو الشرق بحملة نابوليون على مصر عام 1789 – 1801 معلناً التنافس في السيطرة على هذه البقعة الغنية والاستراتيجية المهمة التي تمتد من شمال افريقيا وحتى العراق مروراً ببلاد الشام والخليج العربي. ان الصداقة المتبادلة بين ألمانيا والسلطنة العثمانية التي اعلنها القيصر وليم الثاني والسلطان عبد الحميد الثاني اتاحت لألمانيا ان تحقق مكاسب اقتصادية وسياسية كبيرة... ولكن بعد هزيمتها في الحرب العالمية الاولى (1914) (1918) – ارغمت ألمانيا على التخلي عن طموحاتها الاستعمارية وعن مؤسساتها ومصالحها في الشرق الادنى. اما السلطنة العثمانية فقد انهارت فخضع معظم الدول العربية التي كانت خاضعة لها لبريطانيا او لفرنسا وبدأ الاستعمار يأخذ شكله الجديد. وعاشت هذه الدول العربية في ظل الانتداب. ولكن بمجيء ادولف هتلر الى السلطة في ألمانيا عام 1933 عادت ألمانيا تتوحد الى الدول العربية الخاضعة لعدويها اللدودين بريطانيا وفرنسا.

يطرح الكتاب ثلاث اشكاليات: الاولى هي مسألة توفيق ألمانيا بين سياستها الاستعمارية ومصالحها القومية، ودعمها البلدان الاسلامية ضد اطماع الدول الاستعمارية الاخرى. الثانية هي استخدام ألمانيا خطاباً داعماً للإسلام، فيما كانت تعمل في الوقت نفسه على تحويل الدولة العثمانية وممتلكاتها الآسيوية الى ما يشبه مستعمرة مختزقة تجارة واقتصادا واخيرا الاشكالية الثالثة هي كيفية حفاظ ألمانيا الاتحادية على علاقات حسنة مع البلدان العربية في وقت تدعم اسرائيل ماليا وعسكريا انطلاقاً من "عقدة الذنب" التاريخية تجاه اليهود. وهو ما يعرف بـ"المحرقة" التي تعرض لها اليهود اثناء الحكم النازي.

فالقسم الاول يتناول العلاقات الالمانية – العثمانية بين (1871 – 1918) والقسم الثاني يتناول سياسة ألمانيا لاستغلال الدولة العثمانية ومنصب السلطان عبد الحميد الثاني. والقسم الثالث يعالج مشروعاً ألمانيا مبكراً لجعل فلسطين وطناً لليهود الاوروبيين المنصرين الى الانغماس في "المسألة

الشرقية". والقسم الرابع والاخير يتناول الصراع بين الدولتين الالمانيتين في مصر ولبنان بين 1949 و1972.

استطاعت ألمانيا بفضل العلاقة الجيدة بين الامبراطور الالمانى والسلطان العثماني ان تفوز بمشاريع مد سكك الحديد في البلدان العربية التي كانت خاضعة للسلطنة العثمانية. وهناك امر آخر هو اهتمام ألمانيا بالتنقيب عن الاثار خاصة في العراق ومصر ولبنان وسوريا. حين تولى الامبراطور فريديريك وليم الرابع عرش بروسيا عام 1840 كانت الدول الاوروبية تعقد مؤتمرها في لندن لبحث الوسائل التي يتم بواسطتها تحجيم توسع محمد علي في بلاد الشام. وفي هذه المناسبة اخذت بروسيا تشارك للمرة الاولى في "المسألة الشرقية". ثم جاءت رحلة الامبراطور الالمانى وليم الثاني الى لبنان عام 1898 بعدما زار اسطنبول ثم بلاد الشام (سوريا وفلسطين) واستقبل استقبالاً حاراً فوصل الى بيروت على متن يخته في 5 تشرين الثاني وبات ليلة واحدة فيها وزار بعلبك في طريقه الى دمشق. وكان لهذه الرحلة اهمية خاصة وهي ارسال بعثة المانية للتنقيب عن آثار قلعة بعلبك وأثار نهر الكلب وفك رموزها التي تعود الى عصر نبوخذ نصر. وما زالت بعثات التنقيب الالمانية تعمل في لبنان حتى اليوم. نصل الى فصل يتناول ألمانيا ولبنان خلال الحرب العالمية الثانية (ص 331 (332 – حيث يقول: "منذ خطاب الامبراطور وليم الثاني في دمشق عام 1898 وحتى نهاية الحرب العالمية الاولى، سارت السياسة الالمانية قدما في استمالة الشعوب الاسلامية الخاضعة لبريطانيا وفرنسا وروسيا لاستغلال قدراتها في انتفاضات تنهك تلك الدول وتُشغل قواتها. وقبل الحرب العالمية الاولى قام ديبلوماسيون وسياسيون المان بوضع تقارير ومذكرات حول الاهمية العسكرية للشرق الادنى... فخلال الحرب كان هناك انطباع لدى العرب بأن تحالف ألمانيا مع الدولة العثمانية ليس موجها ضدهم، بل ضد بريطانيا وفرنسا، ولو ان قوات المانية كانت تحارب جنبا الى جنب مع العثمانيين ضد العرب. كان العديد من العرب مقتنعين بأن ألمانيا تعمل لأجل استقلال البلاد الاسلامية متأثرين بالدعاية الالمانية النشطة، التي كانت تظهر ألمانيا على أنها صديقة الإسلام." في الحرب العالمية الثانية راهن كثيرون من العرب أمثال الحاج أمين الحسيني ويونس البحري الذي كان يحيي العرب من برلين، على فوز ألمانيا في الحرب لعلمهم يتخلصون من نير الاستعمار البريطاني والفرنسي، ولكن لسوء حظهم انهزمت النازية وساعد انهزامها على خلق دولة اسرائيل التي جاءت وبالاً على العرب أجمعين.

لنعد الى أهداف رحلة الأمبراطور وليم الثاني الى دول الشرق العربي فنجد انه اراد الحج الى القدس وكسب صداقة العرب فكان ان رحبت به الصحافة العربية بحرارة مراهنه على اقامة علاقات صداقة متينة مع ألمانيا. ولكن لألمانيا حساباتها ومصالحها وان كان ظاهرها التودد الى العرب والمسلمين وقد وضع الامبراطور على ضريح صلاح الدين الايوبي في دمشق لدى زيارته له إكليلا من الزهر كتب عليه بالعربية: "غليوم الثاني قيصر ألمانيا وملك بروسيا تذكراً للبطل السلطان صلاح الدين الأيوبي."

ومهما يكن، فقد تمكنت ألمانيا من ان تكون "الدولة الأكثر تفضيلاً" لدى السلطان العثماني، وهذا ما مكن الامبراطور وليم الثاني خلال رحلته الى الشرق، من ان يعقد سلسلة من الاتفاقيات الاقتصادية مع الدولة العثمانية، وفي مقدمها الحصول على امتياز خط سكة حديد بغداد، وبعد ذلك تقديم الخبرة الفنية الالمانية لمشروع سكة حديد الحجاز. ولم يقتصر صدى سياسة ألمانيا الاسلامية على الدوائر الرسمية العثمانية فحسب، بل وجد الامبراطور حماسة "شرقية" لافتة خلال زيارته الى بلاد الشام،

كما سبق أن ذكرنا، وقد أدى ذلك الى اعتقاد البعض بأن اندفاع العاهل الالمانى لدعم السلطنة في مواجهة اعدائها - بريطانيا وفرنسا وروسيا - دليل على اقتناعه بالدين الحنيف وقد اشارت جريدة "أببيل" البيروتية "الى إمكانية أسلمته!".

نصل في الفصل الرابع الى سياسة ألمانيا مع البلدان العربية بعد الحرب العالمية الثانية ونهوضها من هزيمتها بعد ان اصبحت دولتين: ألمانيا الاتحادية (الغربية) وألمانيا الديمقراطية (الشرقية) والصراع بين الدولتين على كسب ودّ العرب.

ففي سنة 1964 انكشفت صفقات الاسلحة التي قدمتها ألمانيا الاتحادية الى اسرائيل اضافة الى عشرات مليارات الماركات على مدى نصف قرن تعويضاً على ما اصاب اليهود من "المحرقة النازية" وأدى ذلك الى دعوة مصر لرئيس ألمانيا الديمقراطية فالتر أولبرشت فردت ألمانيا الاتحادية على ذلك بالإعتراف باسرائيل سنة 1965 وقد أدى ذلك بدوره الى قطع علاقات 9 دول عربية معها. وكانت اميركا تضغط على ألمانيا الاتحادية لامداد اسرائيل بالاسلح وبالمال ما ساعد هذه على تخطي الصعاب التي كانت تواجهها. وبعد ذلك اخذت اسرائيل تبتز ألمانيا للتخلص من "عقدة الذنب" وهي لا تزال تفعل حتى اليوم وقد تجلى ذلك في زيارة المستشارة ميركل الى اسرائيل التي أظهرت انها متعصبة لاسرائيل اكثر من اليهود! ولكن ألمانيا ظلت تسعى لاقامة علاقات ودية مع الدول العربية رغم دعمها غير المشروط لاسرائيل - مع العلم بان الشعب الالمانى لا يحب اليهود - محاولة ان تجد موطئ قدم لها حيث لبريطانيا وفرنسا واميركا النفوذ الواسع. ساعدها على ذلك سمعتها الحسنة في الدول العربية وكونها غير مثقلة بميراث سياسي - استعماري وقوتها الاقتصادية. وجدت ألمانيا نفسها في لبنان غير قادرة على مزاحمة النفوذ الثقافي والسياسي لفرنسا وبريطانيا واميركا، مدارس وجامعات هذه الدول واللغة الفرنسية والانكليزية لا يمكن اللغة الالمانية مزاحمتها رغم ان معهد غوته لتعليم الالمانية قد مر على تأسيسه في بيروت نصف قرن وهناك مراكز اخرى في طرابلس وجونيه، تستطيع ألمانيا ان تساهم في انشاء مدارس للموسيقى، التي ليست بحاجة الى لغة، وكذلك إنشاء مدارس مهنية سنة 1961 انشأت جمعية المستشرقين الالمان معهدا في بيروت، هو الاول من نوعه خارج ألمانيا. اسس هذا المعهد، وهو المعهد الالمانى للأبحاث الشرقية(OIB) ، استاذي الدكتور هانس فير (1981 - 1909 Hans Wehr) الذي كان مسؤولا عن جمعية المستشرقين الالمان. وكان يريد ان يؤسس هذا المركز في دمشق لانها عاصمة عربية عريقة ولكن الجمهورية العربية المتحدة، التي كانت قائمة يومها بين سوريا ومصر، طلبت ان يكون هناك مدير عربي مع المدير الالمانى للمعهد، وقد رفض هذا الطلب فاتجهت ألمانيا نحو بيروت التي لم تفرض شيئاً. وفي اثناء الحرب الاهلية انشئ فرع في اسطنبول مرادف له بات اليوم قائماً بذاته. وهذا المعهد اصدر اكثر من مئة وخمسين عنوانا من الكتب القيمة.

لا يسمح المجال لتناول كل ما ورد في الكتاب من معلومات والتوسع في ذلك. يكفي ان نقول ان كتاب الدكتور عبد الرؤوف سئو فيه معلومات وافية ومراجع كثيرة بالعربية والالمانية خاصة، الى وثائق وفهارس. ونعترف له بأنه بذل جهداً كبيراً في جمع المعلومات ومراجعة الأرشيف الالمانى وسواه يتناول علاقة ألمانيا بالبلدان العربية منذ حوالى قرن ونصف من الزمن في مراحل متشعبة مرّت فيها ألمانيا والبلاد العربية في منعطفات صعبة لما فيها من مدّ وجزر. لكن ستبقى اسرائيل هي المقياس لسياسة ألمانيا اليوم نحو العالم العربي لانه من الصعب على ألمانيا ان تدعم اسرائيل

المغتصبة للحق العربي وفي الوقت ذاته تراهن على علاقات ودية مع الدول العربية التي يبلغ عدد سكانها ثلاثمئة مليون نسمة. فاذا كان اليهود قد عانوا من المحرقة زمن النازية، ونحن ندينها، فما ذنب الفلسطينيين واللبنانيين والعرب لكي يعانون من "المحرقة" التي انزلتها بهم اسرائيل والتي لم تتوقف جرائمها منذ ستين سنة؟! على ألمانيا والغرب ان يدركا انه من الخطأ الفادح ان يكون "التكفير" عن جرائم النازية بدعم الصهيونية التي هي اشد إجراما.

(•) عبد الرؤوف سؤو – ألمانيا والاسلام في القرنين التاسع عشر والعشرين – دار الفرات للتوزيع والنشر – 2007

ميشال جحا